

علم السكان - الديمغرافيا - في فكر بن خلدون

أ. الكاملة فرحات

rimalfarhat@gmail.com.

أ. ميلود حميداتو

miloud.hmdt@gmail.com

جامعة الشهيد حمّة لخض بالوادي.

الملخص :

لا يعد العلامة عبد الرحمان بن خلدون رحالة كباقي الرحالة الذين اشتهروا في عصره فقط، بل يعتبر مفكرا ورائدا أراد بلورة واقع ما عاشه ورآه من خلال المجتمعات التي سبر أغوارها وفق منهج تاريخي طبقه بشكل فريد، وإذا نظرنا لمفهوم الديمغرافيا الذي ظهر لاحقا فإنه يمكن القول أن العلامة بن خلدون يعد من أبرز المفكرين الذين أدركوا الحقائق الأولى للعمران أو الاجتماع البشري في تاريخ الانسانية .

فقد ركز ابن خلدون في مقدمته على أهمية العنصر السكاني واعتبره من المقدمات الأساسية في ازدهار الأمم ونهضتها الاقتصادية والاجتماعية، فازدهار مختلف العلوم والصناعات وكذلك توفر الخيرات المادية والثقافية مرتبطة ارتباطا وثيقا بالعنصر السكاني وكثافته، ويعتبر بن خلدون أنه ثمة علاقة طردية بين التدهور الاقتصادي والاجتماعي والثقافي والفوضى السياسية وبين النقص السكاني.

لذلك ستسعى المداخلة إلى بحث وايضاح إسهامات بن خلدون في علم السكان مستنديين على بعض المفاهيم التي يمكن اعتبارها مفاتيح يمكن أن تشكل بداية

بلورة لفكر سكاني كان من الممكن أن يتطور لو تواصلت الدراسات وتعمقت بعد ابن خلدون .

The abstract

Ibn khaldoun was not just an Arabic traveler like the other ones who were famous in his time , but he is considered as a pioneer thinker who had explored his surviving period to write about the communities via an applied historical approach .

If we observe the notion of “ demography “ that appeared later, we can say that Ibn khaldoun was among those who recognized the initial realities related to urbanism or human sociology in the history of humanities .

In his presentation , Ibn khaldoun focuses on the importance of the human being considering him as the most important element that contributed in the prosperity of nations and in the development of their economics , mentioning the different sciences and industries relating strongly with the quality of inhabitants and their density .

According to his theory, Ibn khaldoun believes that there are positive relationships between the economic , social , cultural deterioration and the political clutter .

Our article is seeking to clarify the contribution of Ibn khaldoun in the “ demography “ standing on some concepts which can be considered as keys that can be the starting point which has the possibility to be developed , if these studies had been continued after him .

Résumé

Ibn Khaldoun n'était pas simplement un voyageur arabe célèbre comme autres, mais il est considéré comme un penseur pionnier qui a exploré sa période de survie pour écrire sur les communautés par le biais d'une approche historique appliquée.

Si nous observons la notion de «démographie» apparue plus tard, nous pouvons dire qu'Ibn Khaldoun était parmi ceux qui ont reconnu les réalités initiales liées à l'urbanisme ou à la sociologie humaine dans l'histoire des sciences humaines.

Dans sa présentation, Ibn Khaldoun a insisté sur l'importance de l'être humain en lui considérant comme l'élément le plus important ayant contribué à la prospérité des nations et au développement de leurs économies, en mentionnant les différentes sciences et industries liées à la qualité des habitants et leurs densités.

Selon sa théorie, Ibn Khaldoun estime qu'il existe une relation de corrélation directe entre la détérioration économique, social, culturel et le fouillis politique .

Notre article cherche à clarifier la contribution d'Ibn khaldoun dans la «démographie» reposant sur des concepts pouvant être considérés comme des clés pouvant être le noyau initial qui aurait pu se développer, si ces études avaient été poursuivies après lui.

إن الاهتمام بدراسة الظواهر السكانية أمر قديم قدم المجتمعات الإنسانية، ولكن هذا الأمر لم يكن يتطرق إلى دراسة الظواهر السكانية بصورة علمية وإنما تطرق إلى دراستها بصورة بسيطة، وهذه لا يمكن أن نسميها دراسة بل يمكننا القول بأنها أفكار، وأصحاب هذه الأفكار القديمة التي تناولت السكان لم يكن هدفهم الجانب العلمي وإنما كان هدفهم دراسة واقع موجود في المجتمع من أجل تحقيق أهداف معينة.

والحقيقة التي لا يمكن إنكارها أن المحاولات الأولى التي قام بها المفكرون القدامى كانت لا ترتقي إلى مستوى الدراسة العلمية أو إلى مستوى التفكير العلمي الحديث؛ وذلك لأن التفكير العلمي الحديث له شروطه وضوابطه، لكن علينا أن نعترف أن التفكير السكاني القديم كان هو الممهّد الأساسي لظهور الفكر السكاني الحديث أو ما يسمى - بالديمغرافيا - .

من أهم المفكرين القدامى الذين كان لهم قصب السبق في الحديث عن الاجتماع البشري العلامة بن خلدون، إذ لا يعد بن خلدون رحالة كباقي الرحالة الذين اشتهروا في عصره فقط، بل يعتبر مفكرا ورائدا أراد بلورة واقع ما عاشه ورآه من خلال المجتمعات التي سبر أغوارها وفق منهج تاريخي طبقه بشكل فريد، فإذا نظرنا لمفهوم الديمغرافيا الذي ظهر لاحقا فإنه يمكننا القول أن العلامة بن خلدون كان من أبرز المفكرين الذين أدركوا حقائقها الأولى وكانت آراؤه بحق منطلقا أساسيا للنظريات السكانية الحديثة .

ركز ابن خلدون في مقدمته على أهمية العنصر السكاني واعتبره من المقدمات الأساسية في ازدهار الأمم ونهضتها الاقتصادية والاجتماعية، فازدهار مختلف العلوم

والصناعات وكذلك توفر الخيرات المادية والثقافية مرتبطة ارتباطا وثيقا بالعنصر السكاني وكثافته، ويعتبر بن خلدون أنه ثمة علاقة طردية بين التدهور الاقتصادي والاجتماعي والثقافي والفوضى السياسية وبين النقص السكاني.

وعليه فإننا هنا سنسعى إلى بحث وإيضاح إسهامات بن خلدون في علم السكان مستنديين على بعض المفاهيم التي يمكن اعتبارها مفاتيح يمكن أن تشكل بداية بلورة لفكر سكاني كان من الممكن أن يتطور لو تواصلت الدراسات وتعمقت بعد ابن خلدون.

وسنحاول الإجابة على التساؤلات التالية :

- كيف يرى بن خلدون المتغيرات السكانية ؟
- كيف ينظر بن خلدون للنمو السكاني ؟
- ما هي أسس ومعايير البداوة والحضارة في منظور بن خلدون ؟
- كيف تؤثر البيئة - الوسط الجغرافي - على نمو السكان حسب اعتقاد بن خلدون؟

1 - مفهوم علم السكان : علم السكان أو ما يعرف بالديمغرافيا، هو عبارة عن دراسة لمجموعة من خصائص السكان، وهي الخصائص الكمية، ومنها الكثافة السكانية، والتوزيع، والنمو، والحجم، وهيكلية السكان، بالإضافة إلى الخصائص النوعية، ومنها العوامل الاجتماعية، مثل: التنمية، والتعليم، والتغذية، والثروة. ويعنى علم السكان أو الديمغرافيا كذلك بالإحصاءات التي تشمل الدخل، والمواليد، والوفيات، وغيرها مما يساهم في توضيح التغيرات البشرية¹.

2 - بن خلدون والمتغيرات السكانية (الحجم، التوزيع، الخصائص) :

يرى ابن خلدون أن العنصر البشري هو العنصر الفعال والأساسي في إقامة التجمعات الإنسانية² ولذا اعتبرت المتغيرات السكانية هي أولى الظواهر الاجتماعية. والسكان في أي مكان هم الأفراد الذين يجمعهم المجتمع ويلم بشملهم ويعيشون ويعملون فيه معا ويتزاجون إذ هم خليط من ذكور وإناث ومن مختلف الفئات العمرية، ويعملون في مهن مختلفة كما أنهم في حالة حركة ديناميكية مستمرة وهم يمثلون الثروة الحقيقية للمجتمع³، فلولا العنصر البشري على وجه الأرض ما انتشر العمران وما قامت مدينة أو حضارة، كما أنهم القوة الفاعلة التي تدافع عن الوطن، فالسكان يؤثرون على كافة النظم الاجتماعية عن طريق التأثير في مجرى التغيرات الاجتماعية⁴.

ونظراً لتلك العلاقة الوثيقة بين الإنسان والأرض التي يعيش عليها والأهمية التي يمثلها العنصر البشري في المجتمع، فقد خصص عبد الرحمن بن خلدون حيزاً أساسياً يبحث في المسائل المتصلة بالسكان من حيث عددهم توزيعهم ومهنتهم وكثافتهم وتنقلاتهم وارتباط هذه الأمور بالظروف الطبيعية والاجتماعية، والهدف من هذا هو الوصول للحقائق المتصلة بالسكان والتي من شأنها أن تعين السياسي والاقتصادي والاجتماعي على فهم وضع سكان المجتمع ووضع الخطط اللازمة لحل مشاكلهم والتي تستهدف الارتقاء بالعنصر البشري وتهيئة سبل العيش الكريم اللائق به وأن انتشار وتوزيع السكان على الكرة الأرضية لا تحدده العوامل الطبيعية وحدها وإنما يعتمد تأثير ذلك على طرق حياة الناس والخصائص الطبيعية للأرض التي يعيش عليها الإنسان، إذ يتفق اغلب الجغرافيون على أن العوامل الجغرافية تحرز مكانه الصدارة من حيث أهميتها وتأثيرها، كما أن للأنشطة الاقتصادية التي يمارسها الناس، دور هام في توزيع السكان ثم إن التَّمط السائد لتوزيع سكان الريف⁵ يختلف كلياً عن نظيرة لدى السكان العاملين بصورة رئيسية في الصناعة والتجارة وقد يتغير السكان كثيراً مع مرور الزمن بسبب التغير في الأهمية لمختلف أنواع الأنشطة التي يمارسها السكان وان المتغيرات السكانية لها صلة وثيقة بأساليب الإنتاج⁶.

مارس الإنسان نشاطه الاقتصادي منذ أن وجد على هذه الأرض وذلك من أجل كسب قوت عيشه، إذ بدأ بجمع القوت ومارس الصيد، وتعتبر حرفتي جمع القوت وصيد الحيوانات من أولى الحرف الاقتصادية التي مارسها الإنسان الأول ومازالت تمارس بنفس الأساليب في الوقت الحاضر عند الجماعات والشعوب البدائية وكانت تتميز في بيئتها الطبيعية وفي سلوكها ونشاطها العام فهي تتميز بجياتها البسيطة التي اقتضتها ظروف البيئة القاسية والتي عزلتها عن مجرى التقدم والتطور العاملة على تغيير أحوال الناس⁷ كما يرى ابن خلدون⁸.

إن البدو هم سكان الصحارى والتي تميزت حياتهم بالزراعة ورعي الحيوانات وعاشوا تحت بيئة قاسية عزلتهم عن حياة المجتمع المتطور، وبلا ريب فان وجود السكان بالنسبة للجغرافيين الذين يبحثون في علم الجغرافية مهم إلا أنهم قلما يحددون حيزاً كافياً لتأثير العوامل الجغرافية في المتغيرات السكانية من خلال الظواهر الجوية⁹، ودرجات الحرارة، والإمطار، وإشكال سطح الأرض والتربة، وهذه المتغيرات تحد من توزيع السكان والبناء الاجتماعي في حين يرى ابن خلدون بان البيئة الجغرافية تتحكم في كثير من الظواهر الاجتماعية فهي تؤثر في اختلاف ألوان البشر وأجسامهم وميولهم وأنشطتهم العامة وكثيراً من صفاتهم الجسمية والخلقية، وللبيئة الجغرافية في نظره دخل كبير فيما يميز المجتمعات بعضها عن البعض الآخر فيما يخص العادات والتقاليد والأعراف وحتى النظم السياسية والعقائد¹⁰.

والحق أن للحركة تأثير كبير على التّمو السكاني، أو المتغيرات الأساسية لنمو السكان ونقصد بالحركة هنا، كل من الحركة الطبيعية والحركة المكانية، ولربما كان للعامل الأخير تأثير اشد واقوي على التغيير السكاني الذي يحصل عند السكان بسبب الهجرة إلى خارج القطر وتأثيره تأثيراً كبيراً وسلبياً على زيادة الحركة المكانية للسكان، ثم ان الزيادة السكانية لم تكن ظاهرة ديموغرافية ايجابية لكافة أنحاء المجتمع البشري¹¹، وذلك لان الصفة الايجابية تتوقف على ميزان العلاقة بين حجم السكان وحجم الموارد والإمكانات الاقتصادية فان كان ذلك

بعكس حالة الضغط السكاني على الموارد فعند ذلك تعتبر الزيادة مشكلة سكانية كما ستكون إحدى أبرز المعوقات التي تعرقل مشاريع التنمية الاقتصادية في ذلك المجتمع¹².

3 - ظاهرة النمو السكاني عند بن خلدون :

تعد ظاهرة النمو السكاني من الظواهر ذات الأهمية البالغة في كل المجتمعات بدوها وحضرها، ذلك لان المعدل الذي يتغير بموجبه عدد السكان لا يؤثر على حجم الزيادة العددية فقط، وإنما يؤثر على التركيبة السكانية وما فيها من فوارق وتداخلات ذات تأثير كثير ومتعدد، بعيد المدى وقريبة وان زيادة أو قلة سكان مجتمع ما تحدده خلال حقبة زمنية معينة تعتمد على التوازن الحاصل بين الزيادة فيما إذا كانت مفرطة أم معتدلة، التي تسببها الولادات والهجرة، او النقص الناجم عن الوفيات التي هي الأخرى قد تكون كبيرة أو معتدلة. لذا فإن النمو السكاني يتضمن أربعة عناصر رئيسية: هي الولادات والوفيات والهجرة داخل القطر والهجرة منه .

وذكر ابن خلدون¹³ أن طبيعة سكان الحضر ينمو بمعدلات متفاوتة في مختلف بقاع العالم إذ توجد هناك مؤثرات في هذا النمو وان النمو يرجع إلى الزيادة الطبيعية والهجرة وتوسع المستوطنات الحضرية على حساب المستوطنات الريفية والبدوية وتغير مكانتها من ريفية أو بدوية إلى حضرية ويطلق عليها المستوطنات البشرية. وان التركيب السكاني يعني جميع الخصائص السكانية التي يمكن قياسها رقميا حسب العمر والنوع ونمط المعيشة في المناطق البدوية الريفية أو الحضرية كل هذه الخصائص ارتبطت ارتباطاً وثيقاً بعدد المواليد والوفيات في منطقة معينة، وبعدد من يهاجر الى المنطقة ومن ينزحون عنها فالسكان لا يدرس فقط تركيب السكاني فحسب، بل يتناول التغيرات التي تطرأ أو تحدث في هذا التركيب وتأثيرها على حياة المجتمع¹⁴.

وكان لابن خلدون¹⁵ الريادة في طرح نظريته عن التغيرات الدورية للسكان، وتأثر هذه التغيرات على الأحوال السياسية والاقتصادية والاجتماعية إذ كان يرى أن أي زيادة عدد السكان من شأنها أن تسبغ خيراً للمجتمع، إذ يترتب على الزيادة السكانية أن تزدهر الصناعة والتجارة مما يؤدي إلى كثرة ظهور الأيدي العاملة وزيادة الإنتاجية، وكلما زاد السكان تقدم المجتمع وتعددت وحداته البنائية، وارتقت حضارته، وتنوعت علاقات أفرادها، حيث يتكاثف الناس في معيشتهم، ويقومون في وحدات سكنية، وهذا من شأنه أن يؤدي بالمجتمع إلى الترابط والتضامن الحيوي.

إن السكان في علاقتهم بالموارد الطبيعية حالة متحركة متغيرة وليست ثابتة، فكثافة السكان نفسها تؤثر على الموارد الطبيعية ذلك أن كثافة السكان يمكن أن تغير الموارد الطبيعية وإنتاجها، بحيث تغير في قدرتها على تحمل عدد أكبر من السكان أو العكس حيث تكون كثافة السكان من عبئاً على الموارد الطبيعية، إذا لم تستطع هذه الموارد الوفاء بحاجات السكان منها¹⁶، وهكذا يكون السكان في حد ذاتهم عاملاً اقتصادياً يساعد على تنمية أو عرقلة النمو الاقتصادي وإن التغير في كثافة السكان في مجتمع ما يؤدي بالزيادة أو بالنقص ترجع إلى عوامل كثيرة منها ما كان متعلقاً بالطبيعة نفسها، كالأرض والمناخ ومنها ما كان متعلقاً بعوامل اجتماعية متنوعة كالهجرة واختلاف معدلات المواليد والوفيات، ويعتبر تغير معدلات المواليد من أهم الإحصاءات الحيوية التي تساعد على التعرف على الإمكانيات الاقتصادية للمجتمع، فيما يتصل بالقدرة الإنتاجية لأفراده الذين يدخلون في قوة العمل، والتنبؤ بمدى توافر الأيدي العاملة مستقبلاً في المجتمع¹⁷ كما أن الزيادة الطبيعية للسكان، لا يمكن حسابها إلا بمعرفة معدلات المواليد ومعدلات الوفيات حيث أن معدل نمو السكان يتحدد بالبنية البيولوجية وذلك لأن الكتلة السكانية بمرور الزمن تتأثر بتغير هذه البنية¹⁸.

وان كانت هناك عوامل تتسبب في النمو السكاني فتنحصر في ثلاثة عوامل كما حددها احد الباحثين هي: المواليد، والوفيات، والهجرة. وهذه العوامل لا تؤدي إلى تغير

حجم المجتمع فحسب، بل قد تؤدي إلى تغيير تركيبه المجتمع، وكانت الوفيات والهجرة الدور الرئيسي في التغيير السكاني¹⁹، والهجرة هي انتقال الإنسان من موطنه الأصلي أو من بيئته المحلية إلى موطن آخر للارتقاء وكسب وسائل العيش، أو لأي سبب آخر.

وقد تكون الهجرة داخلية، لا تؤثر على النمو السكاني في مجتمع ما، لأنها تعني انتقال السكان داخل حدود المجتمع الواحد وقد تكون خارجية، ويقصد بها هجرة الأفراد إلى خارج موطنهم، فإن الهجرة تترك آثارها، سواء أكان بالنسبة للمنطقة التي تمت الهجرة منها، أو التي تمت الهجرة إليها فهجرة السكان من الريف إلى المدن تؤدي إلى مشكلات اجتماعية عديدة تنعكس آثارها على أنماط الحياة، سواء في المجتمع الريفي أو المجتمع المدني ومن آثار الهجرة الخارجية اصطدام النماذج الثقافية التي ألفها المهاجرون في وطنهم الأصلي بالنماذج الثقافية التي يواجهونها في المجتمعات الجديدة²⁰، وقد حاول ابن خلدون²¹ أن يستظهر حتمية تاريخية في تغيير أساليب الحصول على العيش حين أقر بحتمية الانتقال من المرحلة الدنيا (البداوة) إلى المرحلة العليا في تطور المجتمع (حياة المدن)، وان هذا الانتقال لا يتحقق إلا عن طريق نمو وتجمع الثروات، إذ أن عرقلة الظروف الجغرافية من جهة، وعدم كفاية الأرض الصالحة للزراعة والاستثمار من جهة أخرى، وانتقال جزء من البدو إلى حياة الاستقرار.

ويرى ابن خلدون²² أن زيادة إنتاجية العمل ومن خلال دراسة آراءه - نجد إن هناك علاقة تناسب تناسباً طردياً مع زيادة السكان وكثرة الأيدي العاملة، لاسيما العاملين في الحرف على تنوعها، فكلما زاد سكان المدينة كثرت وازداد عرض السلع في أسواقها، وكلما قل سكانها نقصت خيراتها وقل عرض البضائع في أسواقها، الأمر الذي يؤدي إلى زيادة أسعار البضائع المعروضة، وفي الوقت نفسه تعد زيادة السكان ذات تأثير مزدوج فهي تسهل من جهة تقسيم العمل وتخصسه بين أعضاء المجتمع، وعندئذ يكتسب هؤلاء المتخصصون مهارة في العمل الذي يزاولونه وعندئذ تصبح السلع المنتجة بين أيديهم أكثر

جودة واتقاناً من غيرها، كما تؤثر زيادة السكان تأثيراً إيجابياً على زيادة الخيرات المادية فان زيادة الأخيرة ذات مفعول إيجابي على زيادة السكان.

وهكذا ينظر ابن خلدون²³ إلى الحالة المادية للمجتمع وعدد أفراده في علاقاتهم وفعاليتهم المتبادلة ((ومن زاد العمران زادت الأعمال ثانية ثم زاد الترف تابعاً للكسب، وزادت عوائده، وحاجاته واستنبطت الصنائع لتحصيلها، فزادت قيمها وتضاعف الكسب في المدينة، ونفقت سوق الأعمال بها أكثر من الأول وكذا في الزيادة الثانية والثالثة لأن الأعمال الزائدة كلها تختص بالترف والغنى بخلاف الأعمال الأصلية التي تختص بالمعاش، فالمصر إذا فضل بعمران واحد فضله بزيادة كسب ورفه بعوائد من الترف لا توجد في الأخر، فما كان عمرانه من الأمصار أكثر وأوفر كان حال أهله في الترف ابلغ من حال العصر الذي دونه على وتيرة واحدة. كما يختلف سكان المدن عن سكان الريف من حيث توزيعهم وكثافتهم ونمط حياتهم من حيث البناء الاقتصادي والاجتماعي ومراحل النمو، هو ارتفاع نسبة الذكور على نسبة الإناث ويعرف السكان المدنيون بأنهم ذلك الجزء من السكان الذين يعيش في المدينة ويشغل غالباً بالصناعة والتجارة بعد أن انتقل معظمهم من المجتمع الزراعي، وترتب على التحول تغير في القيم والعادات والتقاليد الاجتماعية بما يصحب ذلك من تغير في معدلات المواليد والوفيات²⁴ ، أما سكان الريف فهم الجزء المتبقي من السكان، الذين يعتمدون على الزراعة، وما يرتبط بها من أعمال، كما أن تركز الصناعة له دور هام، في توزيع السكان بين الريف والمدينة. حيث يظهر في مظهرين، أحدهما مباشر ويرتبط بالتركز السكاني حول الأقاليم الصناعية في المدن، والآخر غير مباشر، ويتمثل في أن الصناعات التي غالباً ما تتوطن في المدن، تجذب إليها كثيراً من مهاجري الريف²⁵ ، كما يعرف التحضر، هو تحول الإنسان من الحياة الريفية المعتمدة على الزراعة والرعي إلى الحياة داخل المدن، والتي تعتمد على ممارسة التجارة والصناعة والتركيز السكان في الحضر وارتفاع نسبتهم العددية، وتعني التحضر تضخم المدن على حساب الريف، فبينما تنمو هذه الظاهرة ببطء في الدول

المتقدمة نجدها تسير بخطى سريعة في الدول النامية، وهذا يعني تأثر سكان الريف أيضا بحياة الحضر بل أصبح الريف يسكنه من لا يعمل في الزراعة وان المدن من أهم العوامل البشرية التي نمت وتطورت نتيجة لتحور المدينة من التواجد قرب مناجم الفحم وعوامل الصناعة والتجارة وتنامي المدن على تزايد عدد سكانها بشكل يفوق وان سمة الحضرية أخذت في التزايد والانتشار مع مرور الزمن²⁶.

4 - البداوة والحضارة في منظور ابن خلدون :

يقرر ابن خلدون أن الإنسان اجتماعي بطبعه ويجتمع مع الآخرين للتعاون فيما بينهم للحصول على الضروري في حياتهم قبل أن يتدرجوا في الوصول إلى ما هم بحاجة إليه زائد على الضرورة ثم يصلون لمرحلة طلب ما هو كمالي بالنسبة لهم، وهو بذلك يقول أن الإنسان يسعى للحصول على الضروري ثم يحاول الحصول على ما يحتاجه دون ضرورة ملحة ثم يتطور للحصول على الكمالي في المرحلة الأخيرة²⁷.

قسم التجمعات الإنسانية إلى قسمين : بدو وحضر ثم قسم البدو إلى عدة أقسام حسب أعمالهم وما يتوفر بأيديهم، فمنهم من يعمل بالفلاحة من غراسه وزراعة وهم سكان القرى والجبال واستقرارهم أكثر من ترحالهم (وهم عامة البربر والأعاجم)، ومنهم من يعمل برعي المواشي من غنم ومعز وبقر وهم رحالة غالبا خلف الماء والكأ فالترحال أصلح لحالهم من الاستقرار ويطلق عليهم (الشاوية) حسب لفظ ابن خلدون لكنهم رغم ترحالهم لا يبتعدون كثيرا ويتوغلون في الصحاري لعدم وجود المراعي داخل القفار(مثل التركمان والترك والأكراد والصقالبة)، ومنهم من يعمل برعي الإبل وهم أكثر ترحالا وتوغلًا في الصحاري والقفار لأن الإبل لا تستغني عن أشجار الصحاري ونباتها إلا أنهم يتقبلون في الشتاء من وسط الصحاري إلى أطرافها فإرا من أذى البرد ولذلك هم أشد الناس توحشا وهم بالنسبة للحضر بمقام الوحش غير المقدور عليه هؤلاء هم العرب ومثلهم رحالة البربر والأكراد والتركمان والترك (المشرق)، إلا أن العرب أشد بدواة لأنهم

مختصون بالإبل فقط أما البقية من بربر وأكراد وتركمان وترك فهؤلاء يراعون الماشية من بقر وشياه، كما تجبرهم طبيعة أعمالهم أن يكونوا بالبادية لاتساعها للزراعة والرعي وهو مالا تتسع له الحضارة²⁸، وبهذا يكون اجتماعهم للتعاون فيما بينهم لتلبية الضروريات لما يحفظ حياتهم ويكفل لها الاستمرارية دون أن يحصل لهم زيادة فوق الضروريات للعجز عن ذلك .

وفي مراحل لاحقة تتسع فيه أحوال هؤلاء البدو ويحصل لهم فوق الحاجة من غنى ورفه ودعة وهذا ما يدعوهم للسكون و الاستقرار والاستقرار والاستقرار من القوت والملبس والتألق والسعة في البيوت واختطاط المدن والأمصار للتحضر، فإذا زادت أحوالهم في التحسن ينعكس ذلك على المبالغة في الترف والتألق في الملابس الفاخرة والحريير والديباج وتنوع الأقوات ويتعالون في البيوت ويصل بهم الترف إلى غايته في اتخاذ القصور وإجراء المياه فيها وإعلاء الصروح والمبالغة في تزيينها وتنجيدها²⁸ وهؤلاء : هم الحضرة وأهل الأمصار وهم من يعملون في الصناعة والتجارة ومكاسبهم أسمى وأرقى من أهل البدو لأن عندهم ما هو زائد عن الضروري وهذه الأجيال طبيعية حسب لفظ ابن خلدون.

وعليه فإنه حسب هذا المنطق، فإن أساس الوضع الحضاري لأي أمة يستند على وضعها الاقتصادي وسلوكها المعيشي مما يتولد عنه اجتماع أفرادها في تنظيمات وتكوينات مجتمعية .

ويرى ابن خلدون بأن البدو أصل للمجتمعات كلها وهم تبعاً لذلك أقدم من الحضرة" أن الإنسان يبدأ أولاً بالسعي للحصول على ما يسد رمقه، ويكفل له استمرارية حياته، وهذه هي بداية كل التجمعات البشرية، ومنها تأتي كلمة بادية، والتي قد تعني من بين معانيها الكثيرة البداية، وبما أن الحضرة منشغلون بالترفي والكمالي في أحوالهم، فيستحيل أن يكونوا بحال من الأحوال سابقين على البدو من حيث النشأة²⁹، لأن الانشغال بالضروري أقدم وسابق على الانشغال بالكمالي، وبما أن الضروري أصل والكمالي فرع ناشئ عنه فالبادوة أصل للحضارة وسابق عليه، وخشونة البادوة قبل رقة الحضارة،

والمدينة غاية للبدوي يجري إليها، ومتى ما حصل على الدعة فيها وصل إلى قيادة المدينة، وهذا شأن القبائل البدوية كلها، أما الحضري فلا يعود للبادية إلا لضرورة تدعوه إليها.

5 - الوسط الجغرافي ودوره في تطوّر المجتمع عند ابن خلدون :

تحدث بن خلدون عن علاقة الجغرافيا بالإنسان، وذكر بأن هناك سبعة أقاليم في العالم متميزة عن بعضها، فالإنسان عند بن خلدون يتأثر بالإقليم الذي يعيش فيه من ناحية طبيعة حياته ومعاشه وعاداته وتقاليده وصنائه، كما خصص ابن خلدون بعد ذلك جزءاً للحديث عن أثر الهواء في اختلاف البشر ويذكر أن الحرّ يُؤلّد الخفة والطيش وكثرة الطّرب والولع بالرقص والغفلة عن العواقب، على عكس المناطق الباردة التي ترى أهلها يميلون إلى الحزن ومفرطين في التّنظر إلى العواقب، ويؤيده من المتأخرين اليازجي بقوله : " أما اثر المناخ في الأخلاق فظاهر على ما بدا له في ميل أهل الأقاليم الحادة إلى التبلد والخفة وحب اللهو، وترك المبالاة في الأمور، وفي اتصاف أهل الأقاليم الباردة بالنشاط والانقباض والمغالة في التخوف والتحسب للطوارئ "، فالمناخ أكبر متحكم في مصير الإنسان فرداً كان ام مجتمعاً في سلوكه وطباعه ³⁰ .

ثمّ يتحدث عن اختلاف أحوال العمران في الخصب والجوع وما ينشأ عن ذلك من الآثار في أبدان البشر وأخلاقهم، ويذكر أن المتقشفين من أهل البادية والحضر ممن يأخذ نفسه بالجوع والتّجافي عن الملاذ أحسن ديناً وإقبالاً على العبادة من أهل التّرف والخصب "ألوانهم أصفى، وأبدانهم أنقى، وأشكالهم أتم وأحسن، وأخلاقهم أبعد من الانحراف وآذانهم أثقّب في المعارف والإدراكات". كما ذهب إلى أن التّحمّل والجلد والصّبر هي من سمات أهل الجوع، قال ابن خلدون : " اعلم أن هذه الأقاليم ليس كلها يوجد بها الخصب ولا كل سكانها في رغد من العيش بل فيها ما يوجد لأهله خصب العيش من الحبوب والأدم والحنطة ووفور العمران وفيها الأرض الحرة التي لا تنبت زرعاً ولا عشبا فسكانها في شطف من العيش " ³¹ .

وعليه فيمكننا القول بأن ابن خلدون يرى أن للبيئة الجغرافية دخل كبير فيما يميز بعضها عن بعض من مقومات في التقاليد والعادات والأفكار وإنما ذات آثار في حياة المجتمع ومظاهر نشاطه ومقدار إنتاجه واستثماره للموارد الموجودة في البيئة كما تؤثر البيئة في المجتمع ويؤثر المجتمع نفسه في بيئته ويحاول أن يكتيفها ويخضعها لرغباته ومتطلباته فكثير ما استطاع المجتمع، ولاسيما في المنظور القريب، أن يغير طبيعة البيئة الجغرافية ويذلها لإرادته، فقد استطاع الإنسان أن يجعل الجبال وديانا، ويشق فيها طرقاً، ويشق فيها إنفاقاً، ويجفف البحيرات، ويجعل من الصحارى مزارعاً، وحقولاً ومن الغابات مدناً مزدهرة العمران .

كما يرى بن خلدون أن الأخلاق تلعب دوراً مميزاً في اثر التطور على المجتمع وذلك من خلال الوسط الجغرافي الذي يعيش فيه الإنسان كما نجد أخلاقه تتأثر بالظروف ولا يؤثر فيها، وان الإنسان لا يختلف عن الشجر والنبات، وانه جزء من الكون، فإذا أردنا أن نغيره يجب أن نغير محيطه أولاً، أما إهمال ظروف بيئته والعناية بها منقطعاً عن ظروفه فهو عبث لا طائل ورائه .

يعد ابن خلدون من أعظم المفكرين في العالم العربي والإسلامي، وقد جاءت شهرته كونه أول من درس المجتمع البشري بطريقة واقعية، وعلى الرغم من شمولية آراءه وعمقها في أحيان كثيرة، إلا أنها لم تصل إلى مستوى النظرية السكانية لأنها لم تعتمد على البيانات السكانية التي تستند على الدراسات الإحصائية ذات الطابع العملي، إلا أنها وفي الوقت ذاته شكلت أرضية صلبة قامت عليها النظريات الحديثة في علم السكان .

وقد توصلت الدراسة إلى ما يلي :

- علم السكان أو ما يعرف بالديمغرافيا له جذور في فكر بن خلدون ظهرت إرهاباته بشكل جلي في المقدمة .
- أكدت الدراسة أثر المتغيرات السكانية على مراحل أدوار الحضارة الإنسانية .
- أوضحت الدراسة ظاهرة النمو السكاني وأثرها على التنمية الاقتصادية من خلال آراء ابن خلدون .
- أظهرت الدراسة العوامل التي تؤثر في الحجم السكاني من خلال الآراء الواردة في مقدمة ابن خلدون.
- بينت الدراسة أهم المعايير والأسس التي اعتمد عليها بن خلدون في تصنيف البدو والحضر .
- أكدت الدراسة أثر الوسط الجغرافي في تطور المجتمع الإنساني.

الهوامش :

- 1- غلاب، محمد السيد وعبد الحكيم، محمد صبحي : السكان ديمغرافيا وجغرافيا، مطبعة الانجلو المصرية، ط 4، القاهرة، 1978 م، ص 3 .
- 2- ابن خلدون : مقدمة بن خلدون ، تح : عبد الله محمد الدرويش، دار يعرب، ط 1، دمشق، 2004 م، ص 319 م .
- 3- ابن خلدون : المرجع السابق ، ص 320 .
- 4- نفسه .
- 5- لتتون، رالف، دراسة الإنسان، ترجمة: عبد الملك الناشف، مطبعة المكتبة العصرية (بيروت، 1936م)، ص 39.
- 6- علي، يونس حمادي، مبادئ علم الديمغرافية، المطبعة الوطنية، (بغداد، 1985م)، ص 238 .
- 7- نجم الدين، احمد وحسين، غزال عباس، الجغرافية البشرية، مطبعة بغداد، (بغداد، 1979)، ص 73 .
- 8- ابن خلدون : مرجع سابق ، ص 312 .
- 9- ابن عيانه، فتحي محمد، جغرافية السكان، مطبعة دار النهضة العربية، ط5، (بيروت، 2000م)، ص 16-17 .

- 10- ابن خلدون : مرجع سابق ، ص 124 .
- 11- القطيفي، عبد العزيز عبد الله ال فارس، النمو الاقتصادي، مطبعة دار المعارف، (بغداد، 1999م)، ص 117.
- 12- الريحاني، عبد مخور، جغرافية السكان، مطبعة البصرة، (بغداد، 1986م)، ص 189.
- 13- ابن خلدون : مرجع سابق، ص 168 .
- 14- الراوي، منصور، التكامل الاقتصادي، بيت الحكمة، (بغداد، 1991م)، ص 219.
- 15- حمود، كامل، تاريخ العلوم عند العرب، مطبعة دار الفكر اللبناني، (بيروت، 1999م)، ص 165.
- 16- اشتور، التاريخ الاقتصادي والاجتماعي، ترجمة : عبد الهادي عيله، مطبعة دار قتيبة، (دمشق، 1985م)، ص 24.
- 17- علي، يونس حمادي، مبادئ علم الديمغرافية، المطبعة الوطنية، (بغداد، 1985م)، ص 238 .
- 18- نفسه .
- 19- وافي، علي عبد الواحد، اعلام العرب، عبد الرحمن حياته واثاره وعبقريته، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، (القاهرة بلا. ت)، ج 4، ص 212-214 .
- 20- باتاي، رفائيل، العقل العربي، ترجمة: وليد خالد احمد حسن، مطبعة مصر، (القاهرة، 2009م)، ص 131-132.
- 21- : الساعاتي، حسن، علم الاجتماع الخلدوني، مطبعة دار المعارف، ط3 (القاهرة، 1975م)، ص 183 .
- 22- بوتول، غاستون، ابن خلدون فلسفته الاجتماعية، ترجمة: عادل زعيتر، مطبعة المؤسسة العربية، ط2 (بيروت، 1984م)، ص 59.
- 23- نفسه .
- 24- رونج، دنيس، علم السكان، ترجمة: محمد صبحي عبد الحكيم، مطبعة مصر، (القاهرة، 1963م)، ص 5-7.
- 25- زيدان، عبد الباقي، أسس علم السكان، مطبعة النهضة المصرية، (القاهرة، 1976م)، ص 13.
- 26- نفسه .
- 27- الشواور، سالم علي والحبيس، محمود عبد الله، جغرافية السكان ومدخل الى علم السكان مطبعة دار الصفاء، (عمان، 2001م)، ص 13-14.
- 28- ابن خلدون : مرجع سابق، ص 177.
- 29- نفسه .
- 30- عبد الحي، عبد المنعم، علم السكان والاسس النظرية والابعاد الاجتماعية، مطبعة الجامعة الحديثة، (القاهرة، 1984م)، ص 13 .
- 31- ابن خلدون : مرجع سابق، ص 166 .
- 32- عبد الوهاب، عبد المنعم والهيبي، صري فارس، الجغرافية السياسية، مطبعة بيت الحكمة (بغداد، 1989)، ص 26.